

وفي الجراد نجد للفولاذ متانة تفل الحديد . كذلك الإنسان — وهو عنصر من الحيوان — فان لمفهم تفوقا على آخرين ، وهذا الإنسان المتفوق « إنسان أعلى » Sur homme ، وإنه ليكثر عدد التفوقين في شعوب دون شعوب ، فبطبيعة الحال تكون هذه الشعوب التي كثر أفرادها المتفوقون ، شعوبا متفوقة « شعوبا عليا » Snrpeuples ، وما دام قانون الطبيعة يعطي الغلبة للساي المتفوق فان من الحق الطبيعي لهذه الشعوب المتميزة أن تكون لها السيطرة ، وأن تقبض بيدها على مقدرات العالم . هذا وإن تطور تاريخ تطور الشعوب — كما تقول النظرية — هو تطور العرق ذاته ، ولقد كانت الأمم ذات البشرة البيضاء سبابة إلى المدنية والرقى ؛ بل إنه كتب لها دائما الظفر في جميع الميادين فدل على علو كمها وسمو معتدها . وهناك فوارق ذات بال في الجنس الأبيض نفسه ؛ فإنها ليست كلها سواسية ، فالرقة والسمو منحصران في العناصر المتحدرة من أصل آري فقط ، لاسيما ما كان منها من هذه الكتلة المختارة أحفاد الجرمان والفرنك القدماء ، وأن زعم الساميين القديم بأرجحيتهم وحصر مظاهر القوة والجمال والذكاء فيهم ، والموامل التي تؤهلهم لأن يتحكموا بالعالم على هوامم ، هو مجرد بطلان وأوهام ، فان العنصر السامي أحط من أن يبلغ المستوى الذي فيه العنصر الآري فلا عبرة هنا لبياض بشرته . تعتمد النظرية في إثبات دعواها على أربعة عوامل : روحية ، وعلمية ، وتاريخية ، وواقعية .

١ : إن القدرة العلوية شاءت أن تختار عنصرا متفوقا من بني الإنسان ، لتعهد إليه بالإدارة ، ولتسكل إليه أمر القيادة في العالم .

٢ : إن العلم في ذاته فيه دافع إلى السيطرة والغلبة ، فإنه يسلم صاحبه وسائل ارتقائه وسموه .

٣ : إن التاريخ يحدتنا عن الأبطال وحدهم ، فهم السادة المعطاءون القابضون على زمام الأمور .

٤ : إن الواقع يصف لنا حاجة الأمم الماسة إلى التوسع ، وبسط النفوذ نتيجة لزيادة الإنتاج وكثافة النسل .

وتنتهي النظرية بالدعوة إلى وجوب إنشاء امبراطورية واحدة تضم جميع هذه الشعوب التي كتب لها ابيضاض الجلد وصفاء الدم قهيمين على العالم وتسيره بارادتها الجبارة .

على مطالعة كتب المشرقيات محاولا استخراج برهان لشيء يجول في خاطره ، أو غاص في كتب علمية مختلفة بيولوجية وفيزيولوجية أو فلسفية وتاريخية يستنتج منها مادة لنظرية جديدة .

العوامل النسبية امرى الكونت دى غوبينو :

هي نظرية جديدة تتجاوب مع نفس هذا الشاب الارستقراطي الذي أنت الثورة على امتيازاته فحزحها ، وتتفق مع هذه النزعة الاستعمارية في الفتح والتوسع التي بلغت أشدها في القرن التاسع عشر أوحت إليه بها كل هذه العوامل المحيطة به ، فهو لا يرضى أن يتساوى مع غيره لأنه أرفع منهم شأنًا ، ولا يريد أن يكون وإياهم على صعيد واحد من حيث سلالة العرق وجريان الدم ، لكن مثل هذه الأوهام لا يمكن أن تنطلي على طبقات الشعوب الأوروبية ، لا سيما وأن مبادئ الثورة أعطتهم الدليل نلو الدليل على أن مسألة تأخر أناس وتقدم آخري هو محض تهذيب وتنقيف أصاب منه واحد يسهم وحرم منه الآخر .

من هم إذاً ؟ هم هؤلاء الشرقيون الذين انحطت مدنيتهم في هذه العصور الحديثة وقلت وسائل دفاعهم ، مما جعلهم عرضة لأطماع سكان أوروبا الغربيين . وجد الكونت دى غوبينو ضالته فلم يبق عليه إلا أن يدعم رأيه بالبرهان ويؤيده بالنطق الملى .

يدخل الكونت السلك السياسي الخارجى وتظهر له كتابات أدبية عديدة، منها مأساة في خمسة فصول وقصص فروسية مختلفة، وإنها لتمضى خمس عشرة سنة يقيم في أثناءها نارة في برن عاصمة السويسريين ، ونارة في فرنكفورت من أعمال المانية حيث تجرى له مقابلة مع الوزير الألماني الشهير بسمرك ، ولكنه يظل في كل هذه المدة نائب العمل على البحث والتنقيب ، وفي حوال سنة ١٨٥٣ يدفع بنظريته إلى النشر .

النظرية :

إن المخلوقات من حيوان ونبات ومجاد تخضع لقانون طبيعي أزل يتميز بعضها من بعض . فهناك فصيلة خير من فصيلة ، وعنصر خير من عنصر ، وبطون خير من بطون .

ففي الحيوان ترى الخيول العربية مثلا أفضل من غيرها . وفي النبات ترى الورد الجورى له رائحة زكية هي أعبق وأشهى على الشم من غيرها .

وقع النظرية في فرنسا :

لم يؤبه للنظرية عند ما نشرت في فرنسا ، ولم تلق شيئاً قليلاً أو كثيراً من الاهتمام ، الأمر الذي أسقط في يد صاحبها ووقع في خيبة شديدة على عكس ما كان يؤمله ويرتجيه ، بل كانت مثاراً للهزء والضحك الشديدين ، فكل ما قيل فيها أن الكونت دي غوينو وهو من الاشراف أراد أن يثار لأهل طبقته التي تدهورت عزتها وحى والجاه الذي حملته دهرها طويلاً ؛ بل إن الكتاب الذي أصدره الكونت نفسه فيما بعد عن قراءة المخطوط على أشكالها المختلفة أى قراءة ما يكتب بالعكس ، وبشكل عمودي أو مائل وغير ذلك كان له وقع أكبر من النظرية للبراءة التي أظهرها الكاتب في هذا الظاهر لدى غواية هذا الفن .

وإذا أردنا أن نصف النظرية لا نجد أنها أتت بشيء جديد فلم ينتظر الأنبياء وكبار التشريعين أو القواد الفاتحون من الاسكندر المقدوني إلى يوليوس قيصر إلى شارلمان إلى نابليون أن يطمعوا في جمع العالم في امبراطورية تحت إمرة واحدة . ويظهر بطلان النظرية وفساد دعواها من تجريد الشعوب السامية عن كل سؤدد ومجد ، وقد دلت هذه الشعوب في مختلف أدوار التاريخ على تقدمها ونجاحها . وليس أدل على ذلك من هذه المدن الباهرات التي سطع نورها من شواطئ النيل وما بين دجلة والفرات وفي رياض الشام وأحساء العربية السميدة في اليمن يوم كانت تلك النخبة المختارة من الجرمان والفرنك قبائل بربرية تعيش عيشة ابتدائية . ولقد كان يهون الأمر لو أن النظرية قدرت أن تبرهن على صفاء الدم وطهارة أى جنس من الأجناس البشرية عن الاختلاط بنيرها .

وقع النظرية في ألمانيا :

ظل الكونت دي غوينو حياته مسافراً متنقلاً من بلد إلى بلد ومن عاصمة إلى عاصمة ، يمثل بلاده كمتعمد أو سفير فلم يعقب عليه بلد أوروبى ، ناهيك عن أنه مكث حقبة من الزمن في طهران وعاش مدة في الريودي جانيرو ، ولقد كانت آخر هذه المواسم مدينة استوكهولم ، قام على أرها بجولة في روسيا وأحباء بلاد اليونان ، ثم عاد إلى فرنسا وأحيل على الماش . ولا يخفى على بالنا أنه انتطع في كل هذه الحقبة عن الحياة الأدبية فهو ما فتى

مؤمناً بنظريته إيماناً أعمى يجد فيها فتحاً جديداً ، يتحدث عنها كل مجلس يضمه ، الأمر الذى حدا بالأميرة غون نجشتيان أن تقول فيه : « هذا دون كيشوت حقيقي في قالب علماء الاجتماع ولباء رجال السياسة » .

لم يشأ القدر أن يترك الحبيبة التي لحقت بالكونت تقتله . جراء الفشل الذى أصيبت به نظرية الأجناس البشرية ؛ فقد قاد له أن يجتمع في روما بالموسيقار الألماني الشهير ريشار فاجنر فأغرم هذا بالنظرية وبصاحبها ووعده إذا قدم وإياه ألمانيا أو يعمل جهده على نشرها . وهكذا كان فاجنر الصديقان مدينة بايرون حيث احتفل أديباؤها بصاحب النظرية احتفالاً باهم وأظهروا استعدادهم لنشر آرائه ، وكان أول عمل قاموا به . أسوا من بينهم رابطة سموها باسمه ونشروا كتبه بالألمانية ومنذ ذلك الوقت اشتهر دي غوينو في الأوساط العلمية والسياسية إذ أن النظرية جاءتهم في وقت كانوا فيه على وشك انتباههم . تحقيق الوحدة الجرمانية يفكرون بتأسيس امبراطورية مترام الأطراف ، فأخذها رجال غليوم الثاني وسيلة لدفع الشعب على غير المستعمرات ونشر العلم الألماني في الآفاق البعيدة حيث تقو النظرية بأن السيادة للنغال المتفوق ، وليس جديراً بالغبلة والتفوق غير الآريين ، والمنصر الجرمانى أسمى عنصر آرى .

ولقد لعبت النظرية دوراً مهماً في عالم الأدب والسياسة فتغنى بها الكاتب الألماني الشهير فريدريك نيتشه وأوحت إلى بعض آرائه عن السبرمان ، ومنها انبثقت فكرة المدى الجرماً Pan germinisme قبل حرب سنة ١٩١٤ ، وكانت للوطنية الاشتراكية بمثابة الحجر الأساسى ، ولها التأثير الأول في تجريد الأقلية اليهودية عن الجنسية الألمانية واعتبارهم عرقاً دينياً منبوذ لا يجوز الاتصال به ، ولا ندري ما ستخلقه في المستقبل .

عوامل انتشار النظرية في ألمانيا :

لا شك في أن الشعوب الشمالية هي أرق الشعوب التمدد على الإطلاق . ولقد ولد فهم هذا التفوق كثيراً من العنجهية والعزة بأنفسهم ، بل ويخامرهم في بعض الأحيان احتقار لغيرهم من الشعوب التي لم تبلغ شأوهم في العصر الحديث . وما من أحد زار لندن عاصمة الانكليز المروفين بأنفسهم إلا قرأ على بعض الأنداء ومجلات اللهو العامة هذه العبارة « الشعوب الملونة غير مرغوب

يضاف إلى ذلك أن كل شعب غره الشنآن القوي الذي تطلب به النظرية ، وإذا كان الكونت دي غوينو يحرصه في الجرماني وحدهم فإن الأقوام الأخرى قسرتة على هواها ، وفيها ورثته من تقاليدها وأبامها ترى الرنمة فيها والتفوق في قومها .

كل هذه الأمور أيقظت الروح القومي ، فأخذت الشعوب تقوى في أفرادها فكرة الوطن والتعلق به ، ولم تفت الإشارة إلى ذلك العالم الفرنسي هنري ديسون فأتى في كتابه عن الإسلام بما ملخصه « رأينا في العالم إثر نشر الكونت دي غوينو نظريته عن الأجناس البشرية تحولاً غريباً ، فقد تمسكت أكثر الأمم بأهداب القومية تمسكاً شديداً ، وادعت باتصالها الوثيق بعرقها الأصلي في حين أن الحقيقة تكذب ذلك ، فلم تسلم أمة من الامتزاج والاختلاط حتى لتتمكن من القول إنه ليس في هذا العالم من جنس صاف سليم . وقد شملت هذه الموجة القومية إبان الحرب العالمية النصرمة أم الشرق المسلمة ؛ فبينما كانت تدعو إلى الجامعة الإسلامية تحولت إلى السمي وراء جامعة عمرية . وهكذا الأمر في تركيا وفارس ؛ فقد تركت زعامتها الإسلامية في سبيل اللل الأعلى التركي ، واهتمت الثانية بشؤونها الخاصة . وهكذا الحال في وادي النيل ، فقد رأى سكانه أنفسهم مصريين قبل أن يكونوا مسلمين . ولعل أقوى ما بقى عليه الشمور الإسلامى في أقصى الشرق المسلم في وزيرستان والهند وفي أقصى الغرب المسلم في طرابلس الغرب وتونس وما وراءها » .

يغلب على ظن الناس أن النظام القوي خير نظام يعيشون فيه ، ولكن الواقع وبخاصة في هذه الأيام الأخيرة يرينا العداوات تجرم إلى التقتيل والتفطيع كأن مدنيتهم لم تقدم في غير التفنن في شحذ الشحنة واختراع المهلكات . ما ذا كان يصير هذه الشعوب أن تبش متآخية مجتمعة لا غالب ولا مغلوب ، ولا آكل ولا مأكول ؟ ... غير أن العلماء يجدون بأن النظام القوي هو مرحلة لا بد منها يمر فيها الناس قبل أن يجمعوا شملهم في إنسانية واحدة . وأنا نتمنى من صميم القواذ أن يمر العالم بهذه المرحلة فلا يقضى عليه الجشع والأثرة وحب الاستيلاء ، ولنا في التاريخ أكبر العبر ، وقد جاء في القرآن الكريم « ولا تنازعوا فتشعلوا » .

صاحب المصباح

فيها » وقد شاهدت بنفسى في برلين شريطاً سينمائياً تظهر فيه فتاة أوروبية شقراء تشأ وترعرع عند جماعة من أهل سيريا النائية فتحب فتى جيلاً من بينهم وتناهب وإياه للاحتفال بالعرس ، ولكن المصادفة تجملها تلتقى بفتى أوروبى أقل جمالا من عريسها المنتظر الذى أحبته من كل جوارحها ، وبالرغم من ذلك كله تشر باحساس يدفع بها إلى الأوروبى عندما يقضى إليها باعجابها ، وإيثاره إياها فتلتحق به غير لاوية على شئ تحت تأثير هذه القوة الكامنة فيها التى جذبتها نحو جنسها طائفة أو كارهة . فإذا كان بعض هؤلاء الشماليين كأهل كنديناوة مثلاً لم تظهر غطرستهم ، فلا أنهم مكتفون بأرضهم لا يطمعون في سواها . كذلك الشعب الألمانى فإنه شعب راق شمالى أولع بنظرية الأجناس البشرية لأنه كما ذكرنا يطمح إلى إنشاء امبراطورية واسعة تليق به كأ كبر أمة في أوروبا ، فوجد فيها باعثاً يدفعه إلى تحقيق مآربه وصدى لما يصبو إليه في الفتح والتوسع . أما الإنكليز والفرنسيين فانهم ليسوا بحاجة إليها فقد أسسوا امبراطوريتهم منذ عهد بعيد ، واستولوا على ما استطاعوا الاستيلاء عليه . وخلاصة القول أن هذا الشمور بالتكبر والخيلاء أحس به كل غالب مسيطر إلا أنه لم يأخذ شكلاً علمياً في قالب نظرية إلا على يد الكونت دي غوينو .

الوطنية ونظرية الأجناس البشرية :

يخيل إلى البعض لأول وهلة أنه ضرب من الخرق أن يقال إنه كان وما زال لنظرية الأجناس البشرية تأثير فعال في إيقاظ الروح القوي وتأجيج الشعلة الوطنية في العالم ، لملهم أن الوطنية هي الشمور بواجب كل شعب من الشعوب نحو أرضه ولغته وتاريخه . ونحن لا نذهب غير هذا المذهب في تعريف الوطنية ؛ إنما نريد أن نقول إن ظهور نظرية الجنس جعل كل شعب يفكر في أمره ، وينم النظر في مصيره لماملين اثنين : الأول دعوة النظرية إلى ضم الأمم الجرمانية في امبراطورية واحدة . والثانى زعم النظرية بوجود وضع العالم أجمع في قبضة هذه الكتلة الجرمانية المختارة ، فلا يخفى أن العامل الأول يفقد الشعوب التى من أصل جرمانى استقلالها ، والعامل الثانى يضع الشعوب الأخرى تحت نير الاستعمار